

# تاريخ الترك في آسيا الوسطى\*

## (و. بارتولد)

مراجعة أحمد الزين

يخالف موقف المتخصص في دراسة تاريخ الترك موقف المتخصص في دراسة تاريخ أية أمة من الأمم، لأن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك. لذلك كان لزاماً على متتبع هذا الأمر أن يعرف زمان نشأتهم منذ بداوتهم من خلال قراءة حكايات جيرانهم وعبر تحولهم من البداوة إلى الحضارة وصولاً إلى الزمن الذي حكمت فيه الأسر التركية المختلفة بلاداً متمدنة. هذا، مع العلم أن الترك في هذه المراحل المختلفة تأثروا حضارياً بالعناصر المغلوبة لهم، كما تأثروا باللغات الأدبية لهذه العناصر، حيث بدأوا يستعملون في كتاباتهم لغة هؤلاء المغلوبين. فالترك المقيمون في منغوليا إنما تعرف أحوالهم من المصادر الصينية، كما أن الترك الذين هاجروا إلى الجزء الغربي من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة الإسلامية، فإنما تعرف أحوالهم أيضاً من المصادر العربية، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص. ومن جهة ثانية، فإن الباحث إذا أراد الوقوف على تاريخ خانات المغول في آسيا الوسطى، أو على تاريخ تيمورلنك وأحفاده، فلا يجد ضالته إلا داخل حدود إيران. حتى أن لغة المؤرخين العثمانيين - وهو ما حرر بالتركية - تحوي من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تحويه من الكلمات التركية.

وموطن الترك الأساسي هو آسيا الوسطى التي تبلغ مساحتها حوالي ستة ملايين كلم<sup>2</sup>، وهي في مجموعها سلسلة من الجبال والهضاب تمتد، من

---

(\*) و. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.

جبال «الهملايا» جنوباً وحتى جبال «الألتاي» و«بابلونوي» شمالاً، ومن جبال «تيان - شان» غرباً حتى جبال «كنجان» و«كوكونور» شرقاً. والعنصران اللذان كانا قد تواجدا في تلك المناطق هما العنصر التركي والعنصر المغولي المشترك.. وهما مدار البحث في هذه المحاضرات.

وقد توالى الاهتمام بدراسة واستكشاف معالم هذه البلاد من جانب رحالة عرب<sup>(1)</sup> وصينيين<sup>(2)</sup> وأوروبيين<sup>(3)</sup>، إضافة إلى كتب الجغرافيا التي حررها العرب ابتداء من القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر الميلادي<sup>(4)</sup>، وكتب التاريخ العربية والفارسية<sup>(5)</sup>، وما صنفه الأوروبيون نقلاً عن هذه المصادر.

أما المعرفة الحقيقية لهذه البلاد فقد تمت بفضل البعثات العلمية<sup>(6)</sup> التي تمكنت من اكتشاف «نقوش أورخون» التي حلّ رموزها العالم «طومسن» في أواسط القرن التاسع عشر. إلا أن هذه البعثات اقتصرّت أخيراً على العلماء الروس.

- (1) من الرحالة العرب «أحمد بن فضلان» الذي جاب بلاد الترك خلال عامي 921 و922م، «وأبو دلف» و«ابن بطوطة» ما بين العامين 1324 و1353م. ورحلة غياث الدين النقاش سنة 1419م.
- (2) أهم رحلات الصينيين رحلة «هيوان - تسانج» سنة 630م.
- (3) الرحلات الأوروبية قام بها التجار الأوروبيون ومروجو المسيحية من مبعوثي باباوات روما، ومنها: رحلة «بلانوكا - بيني» في سنتي 1245 - 1246م. ورحلة القس «روبروك» سنة 1253م. ورحلة «ماركو - بولو» خلال الأعوام 1271 - 1291م التاجر البندقي، وغيرهم.
- (4) أهم مصادر كتب الجغرافيا: كتاب «المسالك والممالك» ل«ابن خرداذبه» سنة 840م، وأخبار البلدان» ل«ابن الفقيه الهمداني» سنة 930م، وكتاب «المسالك والممالك» ل«ابن حوقل» سنة 976م، و«معجم البلدان» ل«ياقوت الحموي» المتوفى سنة 1229م... وغيرها.
- (5) ومن تلك الكتب: «فتوح البلدان» ل«البلاذري» المتوفى سنة 897م، و«تاريخ الأمم والملوك» ل«الطبري» المتوفى سنة 932م، و«مروج الذهب» ل«المسعودي» المتوفى سنة 957م... وغيرها من كتب التواريخ العربية والفارسية.
- (6) بدأت هذه البعثات أواخر القرن الثامن عشر مع الأكاديمية الروسية بأمر من كاترينا الثانية، والتي كانت غايتها الاعتناء بممتلكات روسيا في آسيا.

وهذه المحاضرات التي نحن بصدد دراستها كتبها «بارتولد»<sup>(1)</sup> سنة 1926 - 1927م، ثم ألقاها باللغة التركية في جامعة اسطنبول بدعوة من حكومة «أتاتورك» الذي كان يبغى منها إطلاع الأتراك على الأصول البعيدة للقومية التركية. وقد سبق أن ترجمت هذه المحاضرات إلى الألمانية في مجلة «العالم الإسلامي» الألمانية، كما ترجمتها عن الألمانية «م. دونسكيس» إلى الفرنسية سنة 1945م.

تناولت المحاضرات تاريخ الترك من عهد ما قبل التاريخ التركي إلى أيامنا هذه، وحيث كانوا قبائل متفرقة لم يوسموا بعد باسم الترك وحتى آخر أحداث دولهم في آسيا الوسطى، وصولاً إلى خضوع قسم منها للروس وآخر للصينيين. وقد جاءت هذه الكتابة - خاصة أنها ألفت بشكل محاضرات - شاملة لشروح واستطرادات كثيرة في بعض أماكنها، وفيها إمامات سريعة مجملة أقرب إلى الإشارات المبتورة منها إلى الشرح المفصل. وإذا لم تكن جميعها وثيقة الصلة بالموضوع، إلا أنها تلقي أضواء مختلفة على جوانبه.

وقد عني المؤلف في كتاباته التاريخية بدراسة التأثيرات الحضارية والدينية واللغوية، كما عني بدراسة العوامل الجغرافية والاقتصادية، ودراسة الطرق والمسالك التجارية برية كانت أم بحرية. ومن هنا كثرت مصادره؛ إذ هو لا يكتفي بالمصادر التاريخية والجغرافية بل يرجع أيضاً إلى النتائج التي وصلت إليها البعثات العلمية، ثم يرجع إلى الأبحاث الأتوغرافية والأثرية. كما يرجع كثيراً إلى علم المسكوكات ليضبط به الأسماء، ويقف على دقائق الوضع الاقتصادي في العهود المختلفة، ثم يعود بعد هذا كله إلى كتب الأدب والفولكلور، وإلى كتب التصوف والمناقب والتراجم.

فلا غرو، إذاً، إذا كانت هذه المحاضرات موسوعة كاملة لتاريخ آسيا الوسطى. إلا أن الحق يقال أن فهم ما تحويه هذه المحاضرات صعب جداً،

(1) و. بارتولد (1869 - 1930م). أما مترجم هذه المحاضرات إلى اللغة العربية فهو الدكتور أحمد السعيد سليمان، وقد صدرت عن مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1996م.

والربط بين مختلف أحداثها وحركات قبائلها وشعوبها معقد ينقصه التسلسل والربط من جهة. كما أن الدارس عليه الإلمام باللغات التركية والفارسية وحتى الصينية والروسية، من جهة أخرى. خاصة أنها جاءت خالية تماماً من الحواشي والتوضيحات، وكأن المراد بالإفادة منها هو من يعرف التركية فقط. وإذا لم يكن الهدف كذلك، فكان لزاماً على المترجم أن يملأ تلك الثغرات ويغطيها بالحواشي والتفسيرات والروابط المختلفة بين عناصرها الكثيرة التي ما يكاد يحفظ المتتبع آخرها حتى يكون قد غاب عن ذهنه أولها.

### تسمية الترك للمرة الأولى

إن أقدم آثار تركية تسمى أصحابها بالترك هي تلك التي أنشأها الترك لأنفسهم والتي تخلّد ذكرى اللسان التركي مستخلصة من نقوش أو آثار «أورخون». وهم قوم ظهوروا في القرن السادس الميلادي واستولوا في زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطية. ولا يعرف تاريخ البدو الذين سبقوا هؤلاء الا الصينيون. والفرق بين حكومة الترك في القرن السادس وبين غيرها من حكومات البدو، هو أن الدولة عند أتراك هذا القرن كانت منذ نشأتها تحت إمرة أسرة، لا تحت أمرة شخص. ويرى المؤلف أنه بناء على هذا كان الخانات الحاكمون في غرب البلاد مستقلين من بداية أمرهم استقلالاً تاماً، فكانوا يستقبلون السفراء ويعقدون المعاهدات دون مراجعة الخاقان الأكبر المقيم في الشرق، كما كان يفعل في أواخر عهد المغول. وكانت دولة أتراك الغرب تتصل ثقافياً بالخارج حيث كانت واسطة حضارة الشرق الأقصى حضارة غرب آسيا<sup>(1)</sup>. هذا، مع العلم أن «نقوش أورخون» تتناول فترة نصف قرن فقط، من سنة 630 إلى سنة 680م، وهي الفترة التي كان أتراك الشرق في أثنائها تحت حكم الصين. وهؤلاء الترك استطاعوا الحصول على استقلالهم تحت قيادة بعض الخانات الجدد. كما

(1) يؤكد ذلك اهتمام علماء أوروبا بأترك الغرب، خاصة منهم عالم الصينيات القرخسي «شانان» الذي وضع كتاباً في أوائل القرن العشرين نشرته الأكاديمية الروسية.

أنهم استطاعوا في زمن قصير أن يخضعوا لحكمهم أبناء جنسهم من أترك الغرب. وكان يحكمهم «خانات» يقبضون على زمام الأمور بالقوة؛ إذ لا يُنتخبون من القبيلة ولا يعينون، وإنما تجد جماعة الشعوب نفسها أمام الأمر الواقع فتقبله بلا مقاومة، أو بعد مقاومة طويلة.

### الدين عند الأتراك القدماء

لا تذكر الآثار الموجودة شيئاً عن عقائدهم الدينية، وإن كانت تتحدث عن عبادة السماء والأرض. ويستنتج المؤلف أن عبادتي الأرض والماء عندهم كانت تشكل ألوهية واحدة لا ينفصل جزأها. ومن بين الألوهيات المنعزلة عن غيرها يذكر روح واحد هو الروح الحارس للأطفال الرضع والمسمى «أوماي»، حيث ما زال الأتراك «الشامانيون» في «الألتاي» يقدسون «أوماي» حتى يومنا هذا. كما يقدس «الشامانيون» «بل»، وهو أحد الأرواح أي الجن. ويرى المؤلف أن المصادر الصينية تذكر أن الخان التركي أراد إقامة معبد بوذي في عاصمة ملكه، إلا أنه عدل عن رأيه لأن الديانة البوذية - كما رأى أحد مستشاريه - تؤثر تأثيراً سيئاً على خصائص الترك العسكرية. أما بالنسبة للديانة الإيرانية القوية في ذلك الزمن، وهي الزرادشتية، فلم يكن لها نشاط تبشيري عالمي.

ومن جهة ثانية، فإن الديانتين المانوية والمسيحية دخلتا هذه المنطقة من القرن الثالث الميلادي. وقد انتشرت الأولى بين الترك على نطاق واسع، بينما دخلت الثانية عبر الأبجدية السريانية. كما كان هؤلاء الترك يعتقدون بالتناسخ، فتصبح روح المرء بعد موته طائراً أو حشرة.

### أصول اللغة التركية

يتحرك المؤلف حول دائرة طويلة من مراجع الكتاب والباحثين والرحالة الذين عنوا بالجانب التركي القديم ليرى صعوبة الحصول على أصل ثابت للغة التركية كحال اللغات الفارسية والهندية والصينية وغيرها من اللغات. ويخلص

إلى القول بأن معظم اللهجات التركية متشابهة، وأنه ليس أمام عالم التركيات سوى لهجتين اثنتين متميزتين إحداهما عن الأخرى، وهما لهجة «ياقوت» ولهجة «جوفاش».

فقد انسلخ الناطقون بلغة «الياقوت» عن الأقوام التركية منذ أقدم العصور وهاجروا إلى المناطق الشمالية القصوى. وهم بذلك لم يشتركوا في الحياة التاريخية للأتراك. وأما لغة «جوفاش» فقد استعملت على الضفاف الوسطى لنهر «القولجا»، وكانت أوسع استعمالاً في العصور الوسطى منها الآن. وقد حاول بعض العلماء إثبات أن لغة «الجوفاش» قد حفظت بقايا أقدم دور من أدوار تطور اللغة التركية. كما أنه يمثل أقدم مرحلة لتطور اللسان التركي بعد انفصاله عن أصله، وذلك زمن انفصال اللسان المغولي عن اللسان التركي. ويرى المؤلف أن الترك الذين يتكلمون ما نسميه اليوم «اللغة التركية»، كانوا موجودين منذ أقدم العصور. إلا أنه من العبث أن نفرض أن كلمة «ترك» كانت موجودة قبل القرن السادس الميلادي. وينقل عن «طومسن» أن كلمة «تورك» اسم لقبيلة مستقلة أو لأسرة حاكمة. كما ينقل عن «رادولف» أن الأتراك الذين دامت دولتهم من القرن السادس إلى القرن الثامن كانوا ينتسبون إلى «الأتراك الغز»، وقد صدقت النقوش الأثرية ذلك. وكان هؤلاء «الغز» أو «الترك» ينقسمون قبائل عدة. ففي الشرق يوجد «الثولوس» و«الطاردوش». وفي الغرب يوجد «التوركش». وهناك قبائل أخرى من «الترك» بالمفهوم الحالي للكلمة، وأشهرهم «القالوق» و«الأويغور» و«القيرغيز». ولا يستبعد المؤلف أن يكون المفهوم الحالي للكلمة «ترك» أو «تورك» اصطلاحاً إسلامياً، انطلاقاً من ملاحظة العرب أن أقواماً كثيرة من تلك التي حاربوها في القرنين السابع والثامن الميلاديين كانت تتكلم اللغة نفسها التي يتكلمها الأتراك، فأطلقوا عليهم كلمة ترك. وبعد هذا بدأت الأقوام التي دخلت في الإسلام تسمي نفسها تركاً. ومن جهة أخرى، فإن الروس والأوروبيين الغربيين في الأزمنة المتأخرة لم يطلقوا كلمة «ترك» إلا على السلاجقة ثم على العثمانيين. مع الإشارة إلى أن هؤلاء جميعاً متحدرون من «الغز».

## حركة الترك

لقد كانت أقوام الترك كثيرة، منها البدوي ومنها الحضري. وكان من أكثر الأقوام اتصالاً بهم «الصاموييد»، وبخاصة القاطنون منهم في الجنوب. ويتألف «الصاموييد» من خمسة أقوام تتكون منهم الأسرة «الأور - التائية»، وهم من الشرق إلى الغرب: «الفن - الصاموييد - التورك - الموغول - التنغور». ومن «الصاموييد» المتركين حديثاً قوم «القاراغاص». كما أن أقواماً منهم لم يتم تركها كقوم «قاماسين»، الذين يقطنون شرق ديار «الياقوت»، وهذه بذلك تكون أقصى ديار الناطقين بالتركية لجهة الشرق.

ومن الأقوام غير التركية التي ورد ذكرها في «نقوش أورخون» «التتار». وقد وسم المغول أنفسهم فيما بعد بهذا الاسم. وكان هؤلاء «التتار» قسمين: الأول يتكون من تسع قبائل، والآخر يتكون من ثلاثين قبيلة.

## اتصال الترك بالإسلام

أحرز العرب أهم انتصاراتهم في آسيا الوسطى أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان بين سنتي 705 و715م. وتذكر النقوش أنه في السنوات العشر من حكم قتيبة هذا استولى الأتراك الشرقيون على دولة «توركه ش» لمدة محدودة. ووصلوا غرباً إلى ممر «بزغاله» الذي يفصل الصغد وطخارستان<sup>(1)</sup>، أي يفصل البلاد المتمدنة الحضارية عن البلاد الواقعة قرب المجرى الأعلى لنهر جيحون. ويفهم من مجرى الأحداث أن أترك الشرق حاربوا العرب كما حاربهم أترك الغرب. ولم يستسلم الأتراك في تلك الفترة لأسلحة المسلمين، إلا أن تأثير المدنية الغربية عليهم قوي بعد دخول المسلمين إلى آسيا الوسطى. ومنذ العهد «الساساني» الإيراني بدأ تأثير المدنية الإيرانية يحل محل

(1) الأصح أن الممر المذكور يصل بين سمرقند وبلخ. والصغد منطقة بين بخارى وسمرقند، ونشير هنا أن المؤلف والمترجم يذكران مواقع وبلدان وأسماء كثيرة دون الإشارة إلى التعريف بها أو ذكر أماكنها بدقة حيث يصعب على الباحث الغريب عن جغرافية المنطقة فهم كثير من الأمور والحركات والأسماء.

المدنية الهندية في آسيا الوسطى، خاصة أن إيران كانت تسيطر على طرق التجارة العالمية، البرية والبحرية. وبوقوع الأتراك تحت تأثير المدنية الإيرانية، دخلوا الديانة الزرادشتية.

أما الإسلام فقد أخذ ينتشر بين الترك حين بسطت دولة «آل سامان» الإيرانية نفوذها في أواسط آسيا، وتحديدًا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وقد طالت قبضتهم آنذاك المناطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية، والتي كانت تسمى بلاد ما وراء النهر<sup>(1)</sup>، وكان سكانها يسمون في أثناء الفتوحات الإسلامية بالأتراك. وتدل الوثائق الموجودة أن المدارس التي كانت بخراسان وفي ما وراء النهر في القرن العاشر الميلادي لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام، وكانت تلك المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها. ومع افتتاح البلدان كانت بيوت النار تتحول إلى مساجد. ويرى المؤلف أن «خوارزم»، وهي إحدى الولايات التي كانت واقعة على حدود المدينة الإسلامية، كان لها تجارة واسعة منذ القدم مع الجماعات البدوية التركية. ويبدو له أن أهل خوارزم قد أسهموا في تأسيس المستعمرات الإسلامية بالقرب من «سيحون». ولقد كان للتجار المسلمين دور في نشر الإسلام في بلاد «الخزر»، وخاصة في عاصمتهم «إيتيل» الواقعة على نهر «القولجا». وكانت بلاد «الخزر» تشترك في حدودها الجنوبية الغربية مع بلاد الخلافة الإسلامية.

وينقل المؤلف أن «الخزر» سنة 965م تعرضوا لهجوم من أعدائهم، ومنهم الروس، فطلبوا العون من الخوارزميين. فاشتراط عليهم هؤلاء أن يسلموا، فقبلوا الإسلام، وعاونهم الخوارزميون وأنقذوهم من استيلاء الأعداء. كما تشير المصادر الإسلامية إلى أن بلغار «القولجا»، وهم جيران «الخزر»، كانوا أكثر اتصالاً بالمدنية الإسلامية. ففي سنة 921م وفد على الخليفة المقتدر سفراء من البلغار، ممن اهتموا إلى الإسلام، وطلبوا منه أن يرسل

(1) هو نهر «جیحون» أو «آموداريا».



إليهم بعض العسكريين المتخصصين في بناء القلاع والاستحكامات، وكذلك بعض العلماء لتدريس الإسلام. وكان من بين الهيئة التي أوفدها الخليفة إلى البلغار «ابن فضلان»، الذي وصف الرحلة من بغداد إلى تلك البلاد، ثم العودة ماراً ببلاد «الخزر»، وبخارى وخوارزم. وقد قلد البلغار في سك عملتهم السامانيين، حيث سكوا اسم الخليفة على عملتهم المضروبة في ذلك الوقت. وكان «ابن فضلان» يسمي ملك البلغار «ملك الصقالة».

ويعلق المؤلف على دخول الترك في الإسلام مدعياً أن الأمم البعيدة عن البلاد الإسلامية كانت تتأثر بالإسلام قبل البلاد ذات الحدود المشتركة مع الإسلام، حيث يستنتج ذلك من خلال مشاهدات «ابن فضلان»، الذي رأى بين بلاد الخوارزميين وبلاد البلغار قوماً من الترك «شامانيين» أي بدواً. ويعني ذلك له أن الدين الإسلامي كان ينتشر بين الأتراك الذين لهم نصيب من الحضارة. وعلى جهة أخرى، فالمؤلف يعتبر أن ظهور التبشير الفردي الإسلامي كان مرتبطاً بالتصوف الإسلامي، نافياً أن يكون السبب الرئيسي لدخول الترك في الإسلام هو عسكريتهم وتأثرهم بفكرة الجهاد. وأن سبب نجاح المتصوفة في نشر الإسلام بين الأتراك أكثر من نجاح علماء الدين في ذلك، هو أن المتصوفة يحدّثونهم عن الجحيم والعذاب فيها، وليس عن الجنة وثوابها. ويرى أن سبب تفوق الإسلام على الديانات الأخرى، رغم اعتماد تلك الديانات أساليب المتصوفة نفسها، هو تفوق العالم الإسلامي مادياً ومعنوياً على كل البلاد المتمدنة. ويخلص المؤلف إلى تعليق مفاده أن أمماً كثيرة من ديانات مختلفة كالمسيحية والبوذية والمناوية تركت دياناتها ودخلت في الإسلام، ولكننا لا نجد أمة إسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت في دين آخر.

### أول مملكة تركية إسلامية

في سنة 960م، أي بعد عودة سفارة المسلمين من بلاد البلغار إلى بغداد، دخل الإسلام حوالي مائتي أسرة من الترك، شكلت هذه الأسر فيما بعد دولة «القاراخانيين» وعاصمتها «كاشغر» بقيادة الخان «بغراخان». هذا

بالإضافة إلى إسلام بلغار «الفلج». ويُعد «ساتوق بغراخان» أول من أسلم من خانات الترك كحاكم لـ «كاشغر». وفي القرن العاشر نفسه أسلم قسم من «الغز»، وهم المقيمون عند مصب نهر «سيرداريا». وافتتح خان «الغز» عهده بالإسلام بأن حرر المدن الإسلامية التي كانت تدفع الجزية للكفار حتى ذلك الوقت. وقد اعتبر دخول «القراخانيين» و«الغز» في الإسلام نصراً له، وصار للولايات الإسلامية الواقعة على الحدود جيران مسلمون في الشمال والشرق. وفي سنة 966م احتل «القراخانيون» سمرقند وبخارى، كما احتلوا بلاد ما وراء النهر. وامتاز «القراخانيون» بتقواهم والتزامهم الديني، وبعدهم عن عمل المحرمات، بخلاف «الغزنويين»، الذين ورثوا ملك «السامانيين» في حكم البلاد الواقعة جنوب نهر «جیحون». ويعد محمود الغزنوي من أبرز زعمائهم، حيث كان قد أعلن الجهاد في بلاد الهند، إلا أنه لم يكن يجد حرجاً من تعاطي المحرمات. وقد ظهر من «القاراخانيين» الرحالة «محمود الكاشغري» الذي كتب كتاباً في التاريخ في سنة 1075م أو سنة 1077م وأهداه إلى الخليفة المهندي، والكتاب يتضمن خريطة لتواجد المسلمين في بلاد الترك.

### المغول والصين

يؤكد «الكاشغري» في كتابه ما جاء في «نقوش أورخون» أن من بين الأقوام التي تُعتبر غير تركية خالصة قوم التتار. ومن المعروف أن المغول كانوا يسمون أنفسهم بهذا الاسم. ومن بين هذه الأقوام قوم «ياباقو». ويرى المؤلف أن بعض المغول اتجهوا منذ زمان «الكاشغري» إلى الغرب، حتى وصلوا إلى مناطق يسكنها الترك. كما كان «القيرغيز» القاطنون في الحوض الأعلى لنهر «ينيسي» الصينيين يذكرون بوصفهم من الترك الخُلص. ويؤكد «الكاشغري» في كتابه أن المغول طردوا الترك من منغوليا. وترى المصادر الصينية أن آخر الأقوام التركية التي حكمت بمنغوليا هم «القيرغيز» الذين طردوا «الأويغور» سنة 840م. ويرتبط طرد الترك من منغوليا بظهور قوم من المغول يعرفون باسم «الخطاي» الذين أقاموا دولة قوية له في شمال الصين.

## السلاجقة

خلصت مصادر عديدة، منها ما ذكره «الكاشغري»، أن رئيس الأسرة «الغزية» التي حكمت مؤخراً في إيران كان يسمى باسم «سوباشي»، أي قائد الجيش. وقد نطق الأوروبيون اسمه هكذا: «سه لجوق»، نقلاً عن اللفظ العربي للاسم. في حين أن تلفظ الاسم بالقول: «سالجوق»، أو «سالجيق» هو أقرب إلى التلفظ التركي. والمعروف عن «سلجوق» هذا أنه أسلم وخلّص سكان الوادي الأدنى لنهر «سيحون» من الجزية التي كانوا يدفعونها «للغز». ويرى المؤلف أن العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين الذين يسكنون حوض «سيحون» وبين ذرية «سلجوق». كما يرى أن هؤلاء «الغز»، الذين لم يستطيعوا في وقت الوصول إلى الوحدة، قد وفقوا في تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمراً، ومن بينها تركيا الحالية. ونشير في هذا المجال إلى أن أقدم هجرة عرفها التاريخ للأتراك «الغز» كانت هجرة جماعة منهم تُعرف باسم «البجك» في اتجاه الغرب، وذلك في نهاية القرن التاسع الميلادي.

قامت دولة السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق حفيدين «لسلجوق». كان أحدهما يُذكر في خطابات أئمة المساجد في «نيسابور»، وباسمه تسك العملة. وكان يُدعى للآخر في مساجد «مرو»، وتسك العملة باسمه. ثم بدأ السلاجقة يأخذون عن الإيرانيين قواعد المركزية، وتوحيد أداة الحكم، واستعملوا للمرة الأولى على العملة التي سكوها باسمهم اللقب الإيراني «شاهنشاه»، في حين كان «السامانيون» و«الغزنويون» يفضلون لقب «أمراء مسلمين». ثم بتقدمهم نحو الغرب اتخذوا بدل لقب «شاهنشاه» لقب «سلطان ازسلام». وكان «سلطان الإسلام» يلي الخليفة من حيث الموقع والأهمية، كما كان يولى السلطة الزمنية من الخليفة نفسه. ويشير المؤلف إلى أن «طغرل بك» حفيد «سلجوق» كان قد تزوج من بنت الخليفة العباسي آنذاك.

ويلاحظ المؤلف أن أحفاد «سلجوق» كانوا أشد دفاعاً عن الإسلام وعن أهل السنة من «القراخانيين»، لا بل كانوا متعصبين تحديداً للمذهب الحنفي،

الذي أخذه الترك عن السامانيين»، وأنه بفضلهم دخل الإسلام «الأناضول»، وتكونت به دولة إسلامية تركية.

وكان أحفاد «سلجوق» يسعون إلى السيطرة على كل بلاد العالم الإسلامي. ففي الوقت الذي تمت فيه الفتوحات التركية الأولى في الأناضول، كان السلطان «ألب أرسلان» يغير غارات موفقة على طول نهر «سيحون»، وعلى بلاد «القراخانيين». وفي عهد ابنه وخليفته «ملكشاه» المتوفي سنة 1092م بلغت إمبراطورية السلاجقة أوج عظمتها، فسار «ملكشاه» إلى مدينة «أوزكند» في «فرغانة»، وأخضع لحكمه خان «كشغر» ليمتد بذلك نفوذ سلطان الإسلام على آسيا الإسلامية كلها، وذلك من حدود بلاد «الأويغوز» شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً. ولئن كان «الغزنويون» في الهند وإفغانستان قد احتفظوا باستقلالهم، فقد اضطروا في عهد ابنه «سنجر» إلى أن يخطبوا باسمه على المنابر.

## التتار

إن أول حركة زحف للتتار كانت من منغوليا تحت ضغط «جنكيز خان»، بعدما كانوا يعيشون حول بحيرة «بويرنور». ومعلوم أن استعمال كلمة «تتار» تعود إلى «نقوش أورخون» في القرن الثامن الميلادي حيث كان يطلق على الناطقين باللغة المغولية بوجه عام. وكانت قبائل المغول تقطن المنطقة الممتدة من «سد الصين» جنوباً إلى بحيرة «بايقال» شمالاً. وكان مستواهم الحضاري على درجات مختلفة. وقد ذكر الصينيون ثلاثة أنواع من «التتار» هم: «التتار البيض»، وكان الصينيون يجاورونهم جنوباً. وفي شمالهم «التتار السود». وفي شمال هؤلاء «التتار المتوحشون»، الذين كان يسميهم المغول «شعوب الغابة».

## ظهور جنكيز خان

كان «جنكيزخان» قبل أن يوحد منغوليا تحت إدارته قد خاض حرباً مع

طرف آخر برئاسة زعيم يدعى «جاموغا». وفي سنة 1205م تمكن «جنكيز» من التغلب على «جاموغا» وإعدامه، كما تذكر مصادر المغول نفسها. وفي سنة 1207م خضع «القيريغيز» القاطنون بجوار «ينيسي» «لجنكيزخان»، فكانوا أول من خضع له من أقوام الترك. ثم أخذت سلطة «جنكيزخان» تتوسع شيئاً فشيئاً مع توسع فتوحاته ليصبح نصيبه من السلطان والنفوذ في آسيا الوسطى أكبر مما كان يتمتع به «سلطان الإسلام» نفسه، أي ملك السلاجقة.

ونشير في المقابل، إلى أن خوارزم ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كانت خاضعة للأمراء التابعين لسلطين السلاجقة. وكان هؤلاء الأمراء يحتفظون باللقب الإيراني القديم «خوارزمشاه». وفي تلك الفترة كانت خوارزم مركزاً لدولة كبيرة سيطرت أثناءها على القسم الشرقي من العالم الإسلامي. وكان «محمد خوارزمشاه»، الحاكم في تلك الفترة يطمع في أن يشتهر بأنه فاتح العالم، وخاصة الصين. وحين سمع باستيلاء «جنكيزخان» على بكين تملكه الحزن وأرسل سفيراً لدى «جنكيز» ليتحقق من خبر هذا الفتح. ثم تبادل الفريقان السفراء والمبعوثين كان آخرها قتل محمد «خوارزمشاه» لمجموعة من التجار الوافدين في «أوترار»، إحدى مدن الحدود ببلاد الخوارزميين. ويرى المؤلف أنه من الطبيعي أن تكون حادثة مقتل التجار هذه سبباً مباشراً لغزو «جنكيز خان» للبلاد الإسلامية<sup>(1)</sup>.

ويذكر المؤلف أن «جنكيزخان» استعمل مقولة «فرّق تُسد» مع القبائل التي واجهته ليتمكن من القضاء عليها واحدة تلو الأخرى. ويقول أيضاً إنه لعب الدور نفسه في غرب آسيا. ففي الوقت الذي كان يجري محادثات مع الإسماعيليين ومع الخليفة في بغداد، استأصل الطرفين معاً فيما بعد. وقد دامت الحروب ما بين «جنكيزخان» و«محمد خوارزمشاه» الذي توفي سنة 1220م وخليفته من بعده ولده «جلال الدين» عدة سنوات تمكن المغول أخيراً

(1) يذكر المؤلف أن التجار الذين قتلهم الخوارزميون كانوا يعملون مع جنكيز خاصة، وهم يدينون بالديانة الإسلامية. كما كان في جيش المغول عامة قبائل من مسلمي «قبااليق» و«آلماليق» وبعض الأتراك.

من إيقاع الهزيمة «بجلال الدين» بالقرب من أصفهان وذلك بالرغم من وفاة «جنكيزخان» في سنة 1227م، وبالرغم من خسائره الفادحة.

وتجمع الروايات على أن فتوحات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية. وبعد موت «جنكيزخان» قسمت البلاد التي تملكها بين أبنائه وأحفاده من بعده لأكثر من مائتي سنة. ونشير في هذا المجال إلى أن «هولاكو» ابن «تولوي» ابن «جنكيزخان» خرج من منغوليا في صيف سنة 1253م على رأس جيش كبير استولى به على بغداد، وأجهز على الخلافة العباسية، وأسس حكومة مغولية في غرب آسيا.

#### امبراطورية تيمورلنك

يعود «توغلق تيمور» المولود سنة 1330م، والذي أصبح خاناً في الثامنة عشرة من عمره، بنسبه إلى أسرة من الخانات ظهرت في المشرق. كان أبوه يعرف باسم «إيسان - بوقا» المتحدر من قبيلة مغولية متحركة هي قبيلة «بارلاس» التي كانت تحكم وقتذاك الأماكن الواقعة على نهر «كشكه». وجده هو الأمير «الجغتائي» «قاراجار» الذي يعود بالنسب إلى جد الأسرة «قاجول» أخي «قاجول»، وهو الجد الأعلى لـ «جنكيزخان».

وكان في نية تيمور الاستيلاء على أكبر عدد من الممالك، أو على العالم كله إذا أمكن. وينسب المؤرخون إليه عبارة نُسبت من قبل إلى الإسكندر المقدوني، ومن شابهه من غزاة العالم، مفادها أن «العالم لا يستحق أن يملكه حاكمان». وكان يُمتني نفسه بفتح الصين، ولكن الموت حال بينه وبين تحقيق أمنيته. ويرى المؤلف أن ذلك يدل على مدى اهتمام الأتراك المسلمين بالصين. ويبدو أن عاصمته الأساسية كانت «سمرقند» ذات المركز التجاري المهم. وقد شيد فيها قصراً فخماً يعرف بـ «آق سراي» ما زالت بقاياه حتى اليوم. ولتشديد هذا القصر استعان بالعديد من العلماء والصناع الخوارزميين. وكان مغطى بالفسيفساء الصينية.

وكانت المناطق المتأثرة بالمدنية الإيرانية هي الهدف الأصلي لغزوات

تيمور، فيما قضت الظروف أن تتحمل خوارزم من ويلات حروبه أكثر من غيرها - ربما لأسباب جغرافية، مع العلم بأن سكانها في ذلك الوقت كانوا من الأتراك. فدمرت خوارزم، وأمحت عاصمتها «أوركانج» تماماً، وزرع في مكانها الشعير إعلاناً على خرابها. وكان يوجد في جيش «تيمور» الإيرانيون جنباً إلى جنب مع الأتراك، مع العلم أنه يُنسب إليه القول: «إن الخصال العسكرية قاصرة على الترك».

ومن جهة أخرى، فقد كان «تيمور» متأثراً بالمدينة الإيرانية، مع العلم أنه كان أتماً، ولكنه كان على قسط كبير من الثقافة. وكان يلعب الشطرنج ويخالط العلماء. ومن المعجبين بثقافته ابن خلدون المتوفى سنة 1406م، أكبر مؤرخي العرب في ذلك الوقت. وكان يجلب العلماء إلى عاصمة ملكه ليتوج عظمته بالأبنية الضخمة وبمنشآت الري.

ولم يكن «تيمور» حسن الحظ في أولاده وأحفاده مثل «جنكيز خان»، لأن أولاده لم يعجزوا عن توسيع حدود الإمبراطورية وحسب، بل عجزوا عن المحافظة عليها، حيث بُعيد وفاته فقد أبناؤه كل بلادهم ما عدا «تركستان» والمناطق الشرقية والجنوبية من إيران. وقد تحولت العاصمة التيمورية من «سمرقند» إلى «هراة»، حيث جعل منها «شاهرخ بن تيمور» مقراً له. كما حكم «أولغ بك»، أكبر أبناء «شاهرخ» من جديد في «سمرقند» زهاء أربعين عاماً (1409 - 1449م)، ظلت سمرقند خلالها أكثر المدن ازدهاراً.

وفي عهد «تيمور» تقدم الأدب التركي بعد أن كان معدوم الذكر في عهد «تيمور» نفسه. كما اعتلى شأن الشعر التركي واللغة التركية في تلك الفترة. واستطاعت التقاليد التركية - المغولية أن تستأصل التقاليد التركية الخالصة وأن تقوم مقامها. وقد نقش «أولغ بك» عملته بالتركية، بعد أن كانت العملة في سمرقند تسك باسم الحاكم.

ولم يكن تمسك «أولغ بك» بالقومية التركية يمنعه من الأخذ من المدينة الإيرانية أكثر مما أخذ جده «تيمور». إذ لم يقتصر على لقاء العلماء، بل كان

يشتغل هو نفسه بالعلم ويعلم الهيئة خاصة، فشكّل بذلك أنموذجاً نادراً في التاريخ الإسلامي للحاكم العالم. وكان معاصروه يشبهونه في هذا الباب بالإسكندر المقدوني تلميذ أرسطو، وكدلالة على قوميته التركية اتخذ من الترك تلميذاً وخلفاً له في العلم هو «علي قوشجي»، الذي شارك في إنشاء مرصد «أولغ بك» وفي ترتيب جداول الزيج.

وفي المقابل، كان «أولغ بك» وقبله «تيمور» يهتمون بعدم رعاية أحكام الإسلام، وبالانغماس في المحرمات، كدعوة المغنيات وإقامة الحفلات، وعدم إعفاء الأهالي المسلمين من الجزية تطبيقاً لحكم الإسلام وغيرها.

### انهيار التيموريين

هلك التيموريون في صراعهم ضد قوم من الترك خرجوا من «الإستبس» وهم «الأوزبك»، تحت حكم الخان «أبي الخير»، فقد استولى «أبو الخير» سنة 1431م على مدينة «أوركانج»، وعلى القسم الشمالي من «خوارزم». انقضت سنة 1448م على ما وراء النهر. وفي سنة 1451 أغار على المناطق المجاورة لسمرقند ونهبها. وعلى أيدي أولاد وأحفاد «أبي الخير» كانت نهاية سلطنة التيموريين.

وهكذا استمر الصراع الدامي بين الأقوام التركية بآسيا الوسطى، حتى تمكن الروس والصينيون من فتح «تركستان» خاصة بعدما وقع جزء كبير من آسيا الوسطى بيد قوم متخلفين حضارياً «كالأوزبك». إضافة إلى ذلك فقد اكتشف الأوروبيون أواخر القرن الخامس عشر الميلادي الطريق البحري إلى الهند، واستولى الروس على سيبيريا، مما أوجد لهم طريقاً برياً جديداً يربط بين أوروبا والشرق الأقصى.